البـــــاب الرابع

الجيش والبحرية

ديوان الجيش:

يعتبر ديوان الجيش أول ديوان وضع في الإسلام، وذلك على عهد عمر بن الخطاب[١]، وفى عهد المماليك غدت مهمة هذا الديوان الإشراف على شئون الإقطاعات، وصار في هذه الناحية من أهم الدواوين الحكومية وأعمها نفعا[٢]، حيث تحفظ فيه الأوراق الخاصة بأسماء الجنود وأمرائهم، وكان المتبع على عهد السلطان برقوق أنه إذا مات أحد الجنود أو فصل من الخدمة فى الجيش، عرض بديوان الجيش واحد مكانه ويتناول ما كان يتناوله الجندى السابق من ديوان ذلك الأمير[٣].

وعلى ذلك كان لا يتمكن الجندى من تدوين اسمه بديوان الجيش إلا بواسطة أميره وقائده، كذلك لا يستطيع الجندى أن ينتقل من تبعية قائده إلى تبعية قائد آخر إلا بإذن السلطان وبعد صدور مرسوم منه أو من نائب السلطنة[٤].

ويتولى رئاسة ديوان الجيش موظف كبير يعرف بناظر الجيش، وتعد وظيفته من الوظائف الديوانية الرفيعة في الدولة التى يعين صاحبها من قبل السلطان، ويختار من خاصته[٥]، حيث تقتضى طبيعة وظيفته الدخول على السلطان فى مجالسه الخاصة بإدارة شئون الدولة، وذلك ليعرض عليه الأمور المتعلقة بالجيش، كما كان السلطان يتفاهم معه فيما يعرض عليه من هذه الأمور[٦].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٣١.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢١٥، الخالدى: المقصد الرفيع الورقة ٢٠٥.

Demombynes: La syrie A L'Epoque des Mame louks p.L XXII.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٦٢.

(٤) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص٢١٦.

(٥) القلشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٣٠ - ٣١.

(٦) القلشندى: نفس المصدر والجزء ص٤٤.

ولذلك كان ناظر الجيش يلزمه أن يكون عارفا بأمور الجيش وترتيبها، كما يتعين عليه أن يكون ذا معرفة بأصناف الأمراء والجنود، وما يتعلق بإقطاع كل منهم على قدر مَنْـزِلَته ورتبته في الجيش[١].

وتولى نظر هذا الديوان في عهد السلطان برقوق وابنه جماعة من أفاضل المصريين ما بين مسلم وذمي.

فمثلا رأس هذا الديوان في عهد برقوق القاضي شرف الدين محمد بن محمد ابن عبد الله المعروف بابن الدماميني[٢]، وكان عارفا بالأمور المتعلقة بالدواوين الحكومية، ولذلك وصفته المصادر المعاصرة له بأنه «كان ذا أدب ورياسة ودراية وسياسة»[٣].

كذلك رأس هذا الديوان زمن السلطان فرج، إبراهيم بن غراب، وهو من النصارى الذين أسلموا[٤].

وثمة جماعة من غير أهل مصر تولوا رئاسة هذا الديوان، فقد عهد السلطان برقوق بالديوان إلى القاضي جمال الدين محمود بن علي القيصري الرومي المعروف بالعجمي «وكان عالما صادقًا، فصيحا في العربية والفارسية والتركية»[٥].

وربما جمع بين نظر الجيش وعدة وظائف أخرى لشخص واحد، كما حدث لموفق الدين أبي الفرج الأسلمي ناظر الخاص في عهد برقوق، حيث أسند إليه السلطان برقوق نظارة الجيش مضافا لما بيده من نظر الخاص ونظر الذخيرة واستيفاء الصحبة[٦].

---

(١) القلقشندي: نفس المصدر جـ١١ ص٨٩، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك ص١٠٣.

(٢) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٤٤١.

(٣) ابن الصيرفي: المصدر السابق جـ٢ ص١٢٩.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٣٣٠.

(٥) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٤٥٠.

(٦) المقريزي: السلوك جـ٣ القسم الثاني ص٥١٦.

كذلك أسند السلطان فرج بن برقوق نظارة الجيش إلى القاضى شرف الدين ابن الدماميني مضافا لما بيده من نظر الخاص، ونظر ديوان المفرد، ونظر الكسوة، ووكالة بيت المال[١].

وفى مثل هذه الحالات كانت ألقاب ناظر الجيش تزداد بحيث تتناسب مع مجموعة الوظائف الأخرى التى أسندت إليه[٢].

ولناظر الجيش أتباع من كبار الموظفين، يولون عن السلطان، أولهم صاحب ديوان الجيش، ويلى ناظر الجيش في الرتبة، بل وينوب عنه فى الإشراف على شئون ديوان الجيش إذا غاب[٣]، وكثيرا ما كان يرقى ناظر الجيش فى عهد برقوق من بين من يشغلون وظيفة صاحب ديوان الجيش[٤].

أما مستوفى الجيش فكان يقوم بتحديد مرتبات الجنود وتدوينها في كشوف خاصة، ثم يقوم بصرف هذه المرتبات موظف آخر عرف باسم مستوفى الرزق[٥].

رتب رجال الجيش فى عهد برقوق:

وتكون جيش برقوق كسائر الجيوش المملوكية من قادة وجند، فكان قائد الجيش يسمى أتابك العساكر، وهو الذى يتولى قيادة الجيش[٦].

وبالإضافة إلى قائد الجيش، كان هناك قادة آخرون وهم بقية الأمراء، وتفاوتت درجات هؤلاء الأمراء على حسب مجموعات الجند الذين كانوا يتبعون أميرهم، كما اختلفت أعدادهم كذلك زيادة أو نقصا على حسب رتبة أميرهم في الجيش. .

---

(١) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص٤٣.

(٢) العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف ص٧٥.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٣١، على إبراهيم: تاريخ المماليك البحرية ص٢٦٥.

(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٧٠٦.

(٥) على إبراهيم: المصدر السابق ص٢٦٥، والرزق: جمعه أرزاق، وهى المرتبات سواء كانت يومية أو شهرية، سعيد عاشور: العصر المماليكى ص٤١٩.

(٦) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص١٨.

فأمير مائة من له إمرة مائة فارس، يشتريهم من مال إقطاعه الذى منحه إياه السلطان، وله كذلك «تقدمة ألف» أى قيادة ألف جندى من أجناد الحلقة والمماليك السلطانية وقت الحرب[١].

وتعد طبقة «أمراء المئين مقدّمى الألوف» أعلى رتب الجيش المملوكى[٢].

وقد جرت التقاليد فى الجيش المملوكى أن يكون عدد الأمراء مقدمى الألوف بمصر ٢٤ أميرا، وهذا ما استقر عليه النظام الحربى للدولة منذ أن قام الناصر محمد ابن قلاوون بتنظيم الإقطاعات الخاصة بالجيش، واستمر ذلك النظام معمولا به إلى آخر دولة المماليك الأولى سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م «ولما استجد في دولة برقوق الديوان المفرد لخاص السلطان وأفرد له عدة كثيرة من المماليك السلطانية والمستخدمين، نقصت عدة المقدمين عما كانت عليه وصارت دائرة بين الثمانية عشر والعشرين مقدما بما في ذلك نائب الإسكندرية ونائبى الوجهين: القبلى والبحرى[٣].

ويتلو إمرة مائة في السلم العسكرى على عهد برقوق، إمرة طبلخاناة، وهى إمرة أربعين، بمعنى أن الإقطاع الذى يمنحه السلطان لصاحب هذه الرتبة فى الجيش، يكفى لشراء أربعين مملوكا[٤].

أما إمرة عشرة فهى دون إمرة الطبلخاناة فى مدرج الرتب العسكرية في الجيش المملوكى، وتقضى هذه الإمرة على صاحبها بإقامة عشرة مماليك[٥]، ويلاحظ أن أصحاب هذه الرتبة لا ضابط لعدد أمرائها، بل تتفاوت بالزيادة والنقص على حسب الأحوال[٦].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ١ ص١٤، طرخان: مصر في عصر المماليك الجراكسة ص٢٢٩.

(٢) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٤) القلقشندى: نفس المصدر والجزء ص١٥، طرخان: النظم الإقطاعية ص١٦٠.

(٥) طرخان: النظم الإقطاعية ص١٦١.

(٦) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص١٥.

وإمرة خمسة هى الرتبة الأخيرة فى الجيش المملوكى، ويكون بخدمة كل من أمراء الخمساوات خمسة من المماليك[١].

وكان نظام الترقية في الجيش على عهد السلطان برقوق يخضع للتدرج الطبيعى من رتبة إلى ما فوقها، على أن المملوك في بداية حياته الحربية كان لا بد أن ينضم أولا إلى أفراد الجيش السلطانى المقيمين بالقلعة، وكانت التقاليد المتبعة وقتئذ أن لا تجلب التجار إلا المماليك صغار السن فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه قدرا من الفقه وأقرأه فيه مدة، فإذا صار المملوك إلى سن البلوغ درب على أعمال الفروسية وركوب الخيل[٢]، فكان يتسلم كل طائفة معلم خاص يدربهم على أنواع الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك حتى يبلغ بهم الغاية في معرفة ما يحتاجون إليه، ومن ثم ينقل بعد ذلك إلى الخدمة في الجيش فيتدرج فى الإمرة ويتنقّل في أطوارها رتبة بعد رتبة[٣].

على أن تتبع حالات الترقية لأغلب الجنود فى عهد السلطان برقوق أثبتت أن الذين وصلوا إلى أعلى الرتب فى السلم العسكرى كانوا من خواص السلطان الذين يثق فيهم ويأنس لهم، وقد عرف هؤلاء المماليك فى المصطلح المملوكى باسم «الخاصكية» وهم جماعة من حاشية السلطان يتمتعون بحكم مَنْـزِلتهم منه بمكانة كبيرة، فكانوا يدخلون على السلطان في أوقات فراغه وفى خلواته بغير إذن، وخصص لهم السلاطين المرتبات الجزيلة، كما كانوا يمتازون عن غيرهم من بقية الوظائف المملوكية الأخرى بحسن المظهر وأناقة الركوب والملبس[٤] وحسبنا أن نلمح كثيرا من هذه الجوانب فى العبارات التى يوردها المؤرخون أثناء الترجمة لهؤلاء.

---

(١) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٢) البغدادى: عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨١.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ٢١٣.

(٤) سعيد عاشور: العصر المماليكى ص٤١٠ - ٤١١.

فعلى سبيل المثال كان الأمير أَقْبُغَا الطولوتمرى من الخواص عند السلطان برقوق حتى رقاه إلى أمير عشرة ثم إلى إمرة طبلخاناة وجعله «رأس نوبة»[١]، ثم رقاه إلى أمير مائة وهى أعلى الرتب العسكرية فى الجيش المملوكى[٢].

كذلك كان الأمير أَرْغُون شاه الَبيْدَ مُرِى، حظى عند السلطان برقوق عندما كان مملوكا صغيرا فجعله السلطان ساقيا خاصا، ثم رقاه إلى أمير عشرة فأمير طبلخاناة ثم آل أمره إلى أن أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف، وصار أمير مجلس[٣] السلطان و لم تكن سنه تتجاوز الثلاثين عاما حين رقى إلى أعلى الرتب العسكرية وقتئذ بالجيش المملوكى[٤].

فرق الجند:

وكان الجيش المماليكى على عهد برقوق يتألف من ثلاث طوائف أساسية، هى المماليك السلطانية، وأجناد الحَلْقَة، ومماليك الأمراء[٥]، وجميع أولئك من الأرقاء الذين جلبوا من أسواق الرقيق بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود[٦]، فكانوا خليطا من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد[٧].

وتعتبر الطائفة الأولى وهم المماليك السلطانية «أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأشدهم قربا وأوفرهم إقطاعا، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة»[٨].

---

(١) رأس نوبة: وظيفة يقوم صاحبها بالحكم على مماليك السلطان والأخذ على أيديهم، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص١٨.

(٢) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص٦٤.

(٣) أمير مجلس من الوظائف الكبرى في الدولة المملوكية، وكان هذا اللقب يطلق على من يتولى أمر مجلس السلطان في الترتيب وغيره، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٥ ص٤٥٥.

(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص٦٣.

(٥) ombynes: Op. Cit. p. XXXII

Poliak: Feudalism in Egypt P.2.

(٦) Demombynes: Op. Cit. p. XXXII.

(٧) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢١٥.

Heyd: Histoire du commerce du levant au moyen-Age Tome II.p. 560.

(٨) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص١٥ .

وفى أيام السلطان برقوق غلب على طائفة المماليك السلطانية العنصر الجركسى، حتى بلغت عدتهم في مدة حكمه ما يقرب من خمسة آلاف مملوك[١].

وأما الطائفة الثانية وهم أجناد الحَلْقة، فهذه تتكون من مماليك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم، وهم بهذه الصفة جيش الدولة الذى لا يتغير بتغير السلطان، ويتولى الإشراف عليهم أمراء المئين والنقباء ومقدمو الحلقة، فكان لكل ألف من هؤلاء مشرف من أمراء المئين، ولكل مائة منهم نقيب، ولكل أربعين مقدم حلقة[٢].

والطائفة الثالثة هى مماليك الأمراء، فقد كان لكل أمير جيش صغير يتبعه، وهؤلاء يشتريهم الأمير بالقدر الذى يسمح به إقطاعه ورتبته، ومن مجموع هؤلاء تتكون الوحدات الحربية التى يصحبها السلطان فى حروبه وتحت إشراف أمرائهم[٣].

وقد استطاع السلطان برقوق أن ينهض بهذا الجيش الذى انتابته عوامل الضعف أواخر دولة المماليك البحرية على عهد أولاد الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده، فأخذ يستكثر من شراء المماليك ليكونوا عدته وقت الحرب، وليدرأ بهم الأخطار الخارجية التى أحدقت بالدولة في بدايتها، حتى وصل جميع من اشتراه من المماليك من سائر الأصناف في أيام حكمه ما يقرب من عشرين ألف مملوك[٤].

وبلغ هذا الجيش من القوة فى أيام السلطان برقوق إلى درجة أفزعت تيمور لنك الذى اكتسح عددا كبيرا من بلاد الشرق فى هذه الفترة، ولكنه لم يجرؤ على التقدم غربا نحو بلاد السلطان برقوق إلا بعد أن وصلته أنباء وفاته، وما تبع ذلك

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١٠٧، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٥٢٧.

(٢) القلقشندى؛ صبح الأعشى جـ٤ ص١٦.

Demombynes: Op. cit. P. XXXIII. Poliak: op cit. p.2.

(٣) Demombynes; Op. Cit. P. XXXV III.

(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٤٩٩.

من اضطراب الأمور فى مصر، نتيجة لكثرة منازعات الأمراء على السلطة وانصرافهم عن تدبير شئون الدولة.

أساليب الحرب:

وقد جرت العادة قبل الإقدام على حرب من الحروب أن يعقد مجلس الجيش برياسة السلطان برقوق، حيث يضم هذا المجلس كبار العسكريين وعلى رأسهم الأتابك، كما يضم كبار رجال الدين كالخليفة وقضاة المذاهب الأربعة ليكون إعلان الحرب بهذه الصفة أمرًا مشروعًا[١].

وكان القرار بإنفاذ حملة كبيرة للحرب يعرف عادة برفع راية السلطان الكبرى المسماة «جاليش»[٢] على الطبلخانة[٣]، ويقترن ذلك بقرع طبول خاصة بالقلعة، وهى المسماة بالكوسات الحربية[٤].

ثم يعقب ذلك استدعاء الجيش من مختلف الجهات، فيتسلم أفراده ما يلزمهم من الأسلحة والملابس وغيرها، وبعد ذلك يتم استعراض الجيش بواسطة السلطان وهو مرتد ملابسه العسكرية[٥].

وقبيل تحرك الجيش كانت تهيأ المؤن اللازمة له على طول الطريق، وهذه شملت اللحم والخبز والعليق وغير ذلك[٦].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٨٦.

Demombynes: Op. Cit. P. CIII.

(٢) الجاليش: راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تحمل في مواكب السلطان، لا سيما المواكب الخاصة بالحرب، سعيد عاشور: العصر المماليكى في مصر والشام ص٤٠٣.

(٣) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٧٧.

(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٦١١، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٢٨٠.

(٥) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٧٩، ٣٨٣.

Demombynes: Op. Cit. P. CIII.

(٦) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٨٨، ٣٧٩.

أما مكان تجمع الجيش فقد درج المماليك منذ العهود الأولى على جعل مدينة الصالحية[١] لهذا الغرض، ثم ترك استعمالها بعد منتصف القرن السابع الهجرى بقليل.

وربما كان السلطان قُطُز في سيره إلى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ آخر سلطان جعل مدينة الصالحية مكانا لتجمعات الجيوش المصرية قبل تحركها في مسيرها إلى الشام[٢].

ثم اتجه المماليك منذ نهاية القرن السابع الهجرى إلى الريدانية[٣] فجعلوها مكانا لتجمعات الجيوش قبل سفرها إلى الشام[٤]، وهكذا جعلها السلطان برقوق وابنه فرج مكانا لتجمعات جيوشهم.

وكان الجيش يخرج إلى مكان التجمع جماعات منفصلة، تتقدمها بطبيعة الحال المماليك السلطانية، ثم تعقبها الفرق الأخرى من مماليك الأمراء على أساس أن تكون الفرق الأكثر أهمية فى المقدمة، وذلك على حسب مراتب الأمراء في الجيش[٥].

وقد جعل السلطان برقوق ترتيب فرق الجيش على هذا النسق حين كان يخطط سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م لحملته على تيمور لنك[٦].

---

(١) الصالحية: بلدة اختطها الملك الصالح نجم الدين أيوب في الجزء الشمالى الشرقى من مصر السفلى (وهى اليوم من قرى محافظة الشرقية) وأنشأ بها قصورًا وجامعا وسوقا لتكون مكان استراحة للجيوش العائدة من الشام بعد عبورها صحراء سينا، ومكانا لتجمع الجيوش الخارجة من مصر قبل تحركها إلى الشام وذلك في سنة ٦٤٤هـ (المقريزى: الخطط جـ١ ص١٨٤).

(٢) المقريزى: السلوك جـ١ القسم الأول ص٤٢٩.

(٣) كانت الريدانية تطلق على بستان كبير أنشأه ريدان الصقلى أحد خدام العزيز بالله الفاطمى المختصين به، وعلى ما جاوره من الأرض الرملية (المقريزى: الخطط ج٢ ص١٣٩) ومكان الريدانية اليوم من العباسية حتى مصر الجديدة، انظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ حاشية ٢ ص٢.

(٤) المقريزى: السلوك جـ١ القسم الثالث ص٨٨٢، ٩٠٨.

(٥) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٨٤.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص٥٣، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٦٧.

وكان يصحب الحملة العسكرية قافلة كبيرة جدًّا من الجمال تحمل أثقالها وبلغ عددها في استعدادات برقوق لحرب تيمور لنك أكثر من أربعة آلاف جمل[١].

وفى الحملة العسكرية التى توجهت إلى الشام سنة ٨٠٤هـ/ ١٤١١م، بقيادة السلطان فرج بن برقوق، بلغت عدة الجمال ثلاثة وعشرين ألف جمل[٢].

كذلك صحب الجيش المتقدم بقيادة السلطان فرج موكب كبير جدًّا ضم طوائف من الجند لقرع الطبول الحربية، كما ضم خزائن السلاح والمال، وحرم السلطان، وحاجيات المطبخ السلطانى، وقوافل من الغنم من أجل المطبخ، وقوافل من البقر والجاموس لحلب ألبانها[٣].

وكان الجيش المتقدم يصحبه فى جميع الأحوال مجموعة من الأطباء والجراحين لمداواة الجند مما قد يحل بهم من أمراض أو جراح في أثناء القتال، هذا فضلا عن أنواع الأدوية والعقاقير ونحوها، والتى كانت تصرف لمن يعرض له مرض في الطريق[٤].

ويصحب الحملات الحربية في كثير من الأحيان القضاة والخليفة وشيخ الإسلام، وكذلك الوزير وكاتب السر وناظر الخاص وغير هؤلاء.

وقد صحب السلطان برقوق معه الخليفة والقضاة وشيخ الإسلام وذلك في حملته على تيمور لنك سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م[٥].

---

(١) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٨٦.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٣ ص١٣٥، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٨١٦.

(٣) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء ص١٣٤ — ١٣٥.

Demombynes: Op. Cit. P. C III.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٤٩.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٤٧٠.

كذلك صحب السلطان فرج بن برقوق معه الخليفة وقضاة القضاة الأربعة، والوزير وكاتب السر وغيرهم، وذلك في حملته العسكرية على الثائرين بالشام سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م[١].

واتبع الجيش المملوكي في حروبه طريقة قتال الصفوف، وهي الطريقة التي وصفها ابن خلدون الذي كان معاصرًا للسلطان برقوق والسلطان فرج بقوله: «وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهام، وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصاف، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف، يضربون صفا وراء صف، ويترجلون عن خيولهم، ويفرغون سهامهم بين أيديهم، ثم يتناضلون جلوسا، وكل صف زدء الذي أمامه أن يكبسهم العدو، إلى أن يتهيأ النصر لإحدى الطائفتين على الأخرى، وهي تعبئة محكمة غريبة»[٢].

وقد رتب الأمير منطاش جيشه في محاربته للسلطان برقوق سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م على هذه الصورة، القلب والميمنة والميسرة، وأضاف إلى كل ذلك جناحين، كما جعل في مؤخرة الميمنة مجموعة من الجند الاحتياطي، وكذلك فعل بالميسرة، ولم يتمكن برقوق من ترتيب جيشه على هذه الصورة نظرا لقلة من كان معه من الجند في هذه المعركة[٣].

وفي المعارك التي دارت بين السلطان فرج بن برقوق وبين الأمير تَنَم نائب الشام في سنة ٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م اصطف الجيش السلطاني ميمنة وميسرة، و «قلبا في قلب في قلب» وألحق بكل تشكيل من هذه التشكيلات قوات احتياطية[٤].

---

(١) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ٢ ص٢٩٣.
(٢) ابن خلدون: المقدمة ص٢٢٩.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٣٦٧.
(٤) أبو المحاسن: المصدر السابق جـ١٢ ص٢٠٦.

وكان من الأنسب للجيش المدافع أن يلتقى بعدوه بعد عبوره صحراء سيناء مباشرة، ذلك أن الجيش المهاجم يكون قد ناله الإعياء والتعب بمجرد عبوره الصحراء، في الوقت الذى يكون فيه الجيش المدافع فى راحة من اجتياز الرمال[١].

وفى حالات أخرى فضلت قيادة الجيش المملوكى أن تكون المعركة مع الجيش المهاجم فوق الأرض المصرية وفى جوار القاهرة، وقد أبى السلطان برقوق في سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م أن يلقى الجيوش الزاحفة من الشام بقيادة منطاش بعد أن تعبر الصحراء، وفضل القتال في جوار القاهرة، بعد أن أحكم تحصين قلعة الجبل، وأغلق أبواب القاهرة[٢].

واعتمد الجيش المملوكى في حروبه على الخيل، ولذلك عنى بها السلطان برقوق كل العناية، فأكثر من اقتناء الخيل، وبذل في شرائها المبالغ الطائلة، حتى مات عن سبعة آلاف فرس[٣].

أما عن الأسلحة والآلات التى كان يستعملها الجيش فى حروبه في ذلك العهد، فمنها الخُوَذ والسيوف والرماح والقَرْقَلات[٤].

كما كانت هناك أدوات حربية استعان بها السلطان فرج بن برقوق في حروبه ضد الأمير شيخ بالشام، نخص بالذكر منها المجانيق ومدافع النفط والدبابات ذوات العجل التى تجرها الأبقار[٥].

وجرت العادة عندما تصل أنباء انتصار الجيش إلى القاهرة، أن يقترن ذلك بقرع الطبول في قلعة الجبل، وهو ما عرف في المصطلح المملوكى «بدقة البشائر»

---

(١) أبو المحاسن: نفس المصدر جـ١١ ص٢٥٧.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٢٧٣ - ٢٧٤.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢٥٥، أبو المحاسن: المصدر السابق جـ١٢ ص١٠٦، ١٠٨.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٢٧٣، والقرقل: الدرع تصنع من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأصفر والأحمر.
القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص١١.

(٥) أبو المحاسن: المصدر السابق جـ١٣ ص١٣٤.

وكانت الطبول تستمر على ذلك بضعة أيام، وفى هذه الحالة تصدر الأوامر للناس بتبييض حوانيتهم وإضاءتها بالشموع والقناديل[١].

وفى اليوم المقرر لوصول السلطان على رأس جيشه المظفر يخرج الناس لاستقبال السلطان، وعلى رأسهم الأمراء وكبار رجال الدولة، ثم يشق ركب السلطان القاهرة في موكب ضخم[٢].

أما في حالة عودة الجيش منهزما فإنه يسود الجنود في عودتهم إلى القاهرة حالة من الفوض الشاملة.

ففى معركة السلطان فرج مع تيمور لنك سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م، والتى منى فيها الجيش المملوكى بالهزيمة، عاد الجند إلى القاهرة وهم في أسوأ حال من الجوع والعرى، وعاد كثير منهم على الأقدام[٣].

البحريـــة:

لم تقف مجهودات برقوق الحربية عند اهتمامه بهذا الجيش، بل رأى على أثر اعتلائه سلطنة مصر سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، أنه في حاجة ماسة إلى إنشاء أسطول قوى لدفع خطر القراصنة عن شواطئ دولته، وخاصة الجنوية الذين دأبوا على الإغارة على شواطئ البلاد في تلك الفترة.

وليس أدل على ذلك من أنه عندما ازدادت تحركات الجنوية على السواحل المصرية فى أوائل حكم برقوق[٤]، فإن الأسطول المماليكى استطاع أن يلقن الجنوية درسا قاسيا، وذلك عندما اشتبك معهم بالقرب من سواحل دمياط سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م وانتهت المعركة بهزيمة الجنوية وأسر بعضهم[٥].

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثالث ص١٠٢٦، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٥٨٤.

(٢) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص٥٨.
ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٥٨٤ - ٥٨٥

(٣) ابن إياس: نفس المصدر والجزء ق٢ ص٦١٠.

(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٧٥.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٠٢، ابن الصيرفى: نفس المصدر والجزء ص١١٨ .

وهكذا نجح برقوق فى العمل على إعادة شأن الأسطول بتدعيم قوتة البحرية فى البحر المتوسط.

وقد ظل الحال على ذلك حتى تولى فرج بن برقوق عرش مصر فاهتم أيضًا بشأن القوة البحرية، ولا أدل على قوة هذا الأسطول طوال تلك الفترة من أنه تمكن أيضًا فى عهد فرج من إنزال الهزيمة بمن يلجأ للإغارة على شواطئ البلاد، وذلك عندما أعد حاكم جنوا أسطولا كبيرا سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م ليهاجم به الإسكندرية، غير أن حملته باءت بالفشل بسبب الاستعدادات التى اتخذها السلطان فرج[١].

ولم تقف اهتمامًا برقوق في حمايته للشواطئ عند هذا الحد، بل عمد إلى تحصين الثغور تدعيما لقوته البحرية، فاهتم منذ الفترة الأولى من سلطنته بعمارة برجى دمياط[٢]، كما «جدد خزائن السلاح بثغر الإسكندرية بعد خرابها»[٣] وشحنها بالمقاتلين الذين دربوا على طريقة الدفاع عن الثغور، وبخاصة «رماة قسىّ الرجل» ممن يستخدمون أقدامهم في الرمى بالقوس[٤]، والذين تبدوا أهميتهم بصفة خاصة في أوقات الاشتباكات البحرية.

ومن أشهر السفن الحربية التى كانت تستعمل في عهد السلطان برقوق وابنه فرج، الشوانى والأغربة والحراريق والطرائد.

أما الشوانى والأغربة فقد استعملها الأسطول المماليكى في عهد برقوق حين هاجم السفن الجنوية في مياه البحر المتوسط سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م[٥].

وتعتبر الشوانى من أهم القطع التى كان يتألف منها الأسطول، وأعظمها شأنا، وهى مراكب حربية كبيرة أقيمت فيها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم،

---

(١) Doppe: Op. Cit. P.P. 89 – 90.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٨٩.

(٣) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٢١٢.

(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٦١٢، ابن الصيرفى: نفس المصدر والجزء ص٧٠ .

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٦٦، ٣٧١.

وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات، تقف في الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالأقواس والسهام والحراب، وفى الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف[١].

أما الأغربة فهى كذلك نوع من السفن الحربية تركب فيه المقاتلة والجدافون[٢] وهى من المراكب الشديدة البأس، وقد سميت بهذا الاسم لأن مقدمة هيكلها كان على شكل رأس الغراب[٣].

كذلك الحراريق على عهد السلطان فرج بن برقوق، فقد أوردها المقريزى في حوادث سنة ٨٠٤ عند حديثه عن أحد الأمراء المنفيين بأنه «قيد وحمل فى الحراقة إلى الإسكندرية»[٤].

والحراريق أقل حجما من الشوانى، وهى بمثابة ناقلات الجند والذخيرة، فكان يحمل فيها المشاة فضلا عن الذخيرة والبارود والنفط، أما الطرائد، فهى السفن الخاصة بحمل الخيول، وكانت تتسع لنحو أربعين فرسا، وأحيانا لثمانين فرسا[٥].

ومن هنا نتبين مقدار ما وصلت إليه مصر فى تلك الفترة من تدعيم بحريتها، حتى ظهرت بالمظهر اللائق بها بين الدول البحرية، وخشى بأسها الأمم المجاورة لها، ولا سيما الجنوية الذين بعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون صلحها.

---

(١) سرور: دولة بنى قلاوون ص٣١٥.
(٢) ابن مماتى: قوانين الدواوين ص٣٣٩ - ٣٤٠.
(٣) عبد المنعم ماجد: سلاطين المماليك فى مصر جـ١ ص١٩٢.
(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثالث ص١٠٨٥.
(٥) سعيد عاشور: العصر المماليكى ص٢٨٠.